المحاضرة: رقم 04

أولا: **الفصاحة والبلاغة** (قراءة في كتاب سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت 466هـ)،

الكلام في الفصاحة:

"الفصاحة الظهور والبيان ومنها أفصح اللبن إذا انجلت رغوته وفصح فهو فصيح قال الشاعر:

وتحت الرغوة اللبن الفصيح

ويقال أفصح الصبح إذا بدا ضوؤه وأفصح كل شيء إذا وضح وفي الكتاب العزيز: "وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ". **34/القصص،** وفصح النصارى عيدهم وقد تكلمت به العرب.

قال حسان بن ثابت:

ودنا الفصح فالولائد ينظمن ... سراعا أكلة المرجان

ويجوز أن يكون ذلك لاعتقادهم أن عيسى عليه السلام ظهر فيه وسمي الكلام الفصيح فصيحاً كما أنهم سموه بياناً – لأعرابه عما عبر به عنه وإظهاره له إظهاراً. جلياً. روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "أنا أفصح العرب" بيد أني من قريش.

والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني. لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وإن قيل فيها إنها فصيحة. وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغاً كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه.

وقد حد الناس البلاغة بحدود إذا حققت كانت كالرسوم والعلائم وليست بالحدود الصحيحة فمن ذلك قول بعضهم لمحة دالة وهذا وصف من صفاتها فأما أن يكون حاصرا لها وحداً يحيط بها فليس ذلك بممكن لدخول الإشارة من غير كلام يتلفظ به تحت هذا الحد. وكذا قال آخر والبلاغة معرفة الفصل من الوصل لأن الإنسان قد يكون عارفاً بالفصل والوصل عالما بتمييز مختار الكلام من مطرحة وليس بينه وبين البلاغة سبب ولا نسب ولا يمكنه أن يؤلف ما يختاره من تأليف غيره والحدود لا يحسن فيها التأول وإقامة المعاذير وغرابة ألفاظ

تدل على المقصود لأنها مبنية على الكشف الواضح موضوعة للبيان الظاهر والغرض بها السلامة من الغامض فكيف يوقع في غامض بمثله. وكذلك قول الآخر: البلاغة أن تصيب فلا تخطيء وتسرع فلا تبطئ لأن هذا يصلح لكل الصنائع وليس بمقصور على صناعة البلاغة وحدها ثم إنما سئل عن بيان الصواب في هذه الصناعة من الخطأ فجعل جواب السائل نفس سؤاله. وبهذا أيضاً يفسد قول من ادعي أن حدها الإيجاز من غير عجز والإطناب من غير خطل. وقول من قال: البلاغة اختيار الكلام وتصحيح الأقسام. لأن هذين إنما سئلا عن حد يبين الكلام المرفوض من المختار والخطأ من الصواب ويوضح كيف يكون الإيجاز مختاراً ومتى يقع الإطناب مرضيا محموداً فأحالا على ما السؤال فيه باق وعدم العلم معه موجود حاصل.

وفي البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزئيها فكلامي على المقصود وهو الفصاحة غير متميز إلا في الموضع الذي يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قدمت ذكره فأما ما سوى ذلك فعام لا يختص وخليط لا ينقسم. وسأذكر بمشيئة الله ما يخطر لي ويسنح بفكري في موضعه.

وأقول قبل ذلك إن الناس قد أكثروا من الدلالة على شرف الفصاحة وعظم قدر البيان والبلاغة ونبهوا بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة. وقد قال عز اسمه: "الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ"**1. 4/الرحمن**. ولم يكن تعالى يذكر البيان ها هنا إلا وهو من عظيم النعم على عبيده وجميل البلاء عندهم لا جرم وقد قرن ذلك بذكر خلقهم فجعله مضافا إلى المنة بخروجهم من العدم إلى الوجود ومن جانب النفي إلى الإثبات".(ص: 83/82/81).

ثانيا: قرءاة في كتاب "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، (الكتاب أصله رسالة دكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى) عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني (المتوفى: 1429هـ)، مكتبة وهبة.

يقول صاحب الكتاب: " **روعة اللفظ القرآني في نفسه:**

" القرآن يتأنق في اختيار الألفاظ، ويستخدم كلا حيث يؤدي معناه في دقة فائقة تكاد تؤمن معها بأن هذا المكان إنما خلقت له هذه اللفظة دون سواها ولذلك لا تجد في القرآن ترادفاً.

بل كل كلمة تحمل إليك معنى جديداً.

فالألفاظ فيه قولة عنيفة في مقام التهديد والوعيد، رقيقة عذبة في مجال الترغيب والتهذيب.

وهادئة حسنة في مقام التشريع والتفريع.

ولهذا فإنك لا تجد في القرآن كلمة معيبة من حيث الصورة أو الاستعمال.

ولا تجد فيه لفظاً قلقاً مضطرباً أو نابياً في موضعه.

إلى آخر تلك العيوب التي يرددها نقاد الشعر وخبراء الأساليب.

وسلامة اللفظ القرآني من العيوب نعني بها أن الألفاظ في القرآن مختارة منتقاة لم يأت لفظ فيه حيثما اتفق. بل تدبير حكيم عليم. وإلى جانب انتقاء اللفظ القرآني من حيث صورة اللفظ نفسه – حروفه وحركاته وسكناته – فإن القرآن يُؤثر استخدام الألفاظ القصار الثلاثية الأصول أو الرباعية الأصول.

والثلاثية الأصول فيه أوفر عدداً من الرباعية.

" أما أن اللفظة خماسية الأصول فهذا لم يرد منه في القرآن شيء. لأنه مما لا وجه للعذوبة فيه. إلا ما كان من اسم عُرِّب ولم يكن في الأصول عربياً؛ كإبراهيم وإسماعيل، وطالوت وجالوت. . ونحوها.

ولا يجيء فيه كذلك إلا أن يتخلله المد كما ترى.

فتخرج الكلمة وكأنها كلمتان ".

وتحقيقاً لهذه الصفة – انتقاء الألفاظ وعذوبتها في القرآن – فإن القرآن يعمد إلى تهذيب ما قد يُعاب من اللفظ إذ دعا داع بلاغي لوروده فيه.

ولهذا فإنك ترى في القرآن كلمات يشهد الذوق بحسنها لأنها هُذِّبت ووُضعَت وضعاً مُحْكماً فيه.

بينما تراها في غيره معيبة شاذة. . وذلك بشهادة النقاد أنفسهم.

وليس ذلك مجاملة منهم للقرآن لما له من قداسة، بل لأسباب فنية أوضحوها ووجهوا إليها الأنظار.

ألفاظ حسنت في القرآن وعيبت في غيره:

...... ومن ذلك – أيضاً – كلمة " تؤذى ". فقد عابوها في قول المتنبى:

تَلَذُّ لهُ المرُوءَةُ وَهِيَ تُؤْذِى. . . وَمَنْ يَعْشَقْ يَلَذُّ لهُ الغَرَامُ

والسبب أن الشاعر قطع الكلمة – وهي ثقيلة – عن الإضافة على العكس من كلمة " مقاعد " فإن عيبها جاء من إضافتها.

ولو أضافها لخفف من ثقلها.

وقد جاءت في القرآن في مواضع هي فيها حسنة رائقة.

وذلك في قوله تعالى: (إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ) .

لذلك كانت هذه الكلمة. – هنا – أجمل منها في بيت المتنبي.

والحكم في ذلك للأذن الموسيقية ".

فالقرآن – كما ترى – استعمل الكلمة واقعة على مفعول " النبي " فخفت ورشقت وهي في قول المتنبي مقطوعة عن الإضافة.

ومن ذلك كلمة " ضيزىَ "، وهي أغرب ما في اللغة من كلمات. بله القرآن.

ولقبح هذه الكلمة لم يستعملها عربي فيما وصل إلينا من أقوالهم وأشعارهم.

ومع ذلك فإنك تجد لها من الحسن في القرآن أضعاف ما ترى لها من القبح والغرابة في غيره.

قال تعالى في سورة النجم موبخاً أهل الشرك: "أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى" (22).

" ولحسن هذه الكلمات في هذا الموضع عدة اعتبارات:

1 – أن السورة التي وردت فيها فاصلة لإحدى آيها الفية الفواصل، فجاءت الكلمة ذات نغم صوتي ملتئم. مع فواصل الآي الأخرى.

ولو وضع موضعها " جائرة " وهي قسيمتها في الدلالة لجارت على الموضع وفاتت المناسبة وحسن الجوار. فجيء بها – أي ضيزى – لذلك الالتئام والتناسق الصوتي الذي لا يخفى أثره.

– أنها جاءت معلقة على سلوك معيب حيث جعلوا لله الإناث – سبحانه

– ولهم الذكور، مع الإصرار على قتلهم البنات.

3 – أن الآية الأولى: (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى) اشتملت على

استفهام إنكارى. والآية الثانية: (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى)

اشتملت خاتمتها على التهكم.

وهما معنيان متناسبانَ، أولهما كالمقدمة لثانيهما. وهذه الكلمة

الغريبة – ضيزى – أليق ما تكون دلالة على التهكم.

لأنها وضعت حالة التهكم في إنكاره من إمالة الرأس واليد بهذين المدين منها إلى الأسفل والأعلى.

وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية.

4 – وإن تعجب فعجب نظم هذه الكلمة نفسها. وائتلافها مع ما قبلها

إذ هي مقطعان أحدهما مد ثقيل، والآخر مد خفيف. وقد جاءت عقب غنتين فى " إذن " و" قسمة " إحداهما خفيفة حادة، والأخرى ثقيلة متفشية. فكأنها بذلك ليست إلا مجاوبة صوتية لتقطيع موسيقى.

وهذا معنى رابع للمعاني الثلاثة الأول ".

5 – وخامس هذه المعاني أن هذه الكلمة الدالة على المعاني الأربعة المذكورة إنما هي أربعة أحرف أيضا". [1/ص: 247 . 248 . 249]